ذكريات مع الشيخ عبدالله الخليلي

الحلقة الثانية

أحمد الفلاحي

ومن الباحثين المهتمين بالأدب الذين لقيهم الشيخ عبدالله الباحث المصري الدكتور فيما بعد علي عبد الخالق الذي جاء سمائل في أوائل سبعينات القرن الماضي مدرسا في مدارسها وهناك توثقت صلته مع أدباء سمائل وأعلامها وفي مقدمتهم الشيخ عبدالله وأوحت إليه إقامته تلك وإطلاعه على الكثير من الأدب العماني المخطوط والمطبوع بكتابة أطروحته للماجستير عن الشعر العماني الحديث وللشيخ عبدالله نصيب كبير فيها وقد صدرت هذه الدراسة في كتاب نشرته دار المعارف في القاهرة ثم أتبع ذلك بعمل كبير نال عليه درجة الدكتوراه عن الشاعر الستالي الذي يعرف في عمان بشاعر النباهنة وقد صدر هذا البحث في كتاب ضخم عن دار المعارف أيضا.

وإذا تجاوزنا مساجلات الشيخ عبدالله مع أقرنه من شعراء العربية وأدبائها والتفتنا إلى القضايا العربية في شعره لوجدناها صيحات غاضبة وأشجان ملتهبة وكانت قضية فلسطين في الصميم وأفرد لها كثير من قصائده إضافة إلى مشاركته في قضايا العرب الأخرى فهو قومي النزعة عربي الهوى والتوجه وشعره يفيض بالأوجاع العربية ويصدر عنها ويتأثر بها ولم يزل شعره صوت الأحرار المهمومين بهموم الأمة ونوائبها وأذكر أنني حين كنت في البحرين أثناء حصار إسرائيل لبيروت لمدة سبعين يوماً في أوائل الثمانينات من القرن الماضي كتبت إليه رسالة حزينة طويلة فجاءني رده في قصيدة مؤثرة تقول بعض أبياتها:-

سلام يرتدي حلل الفلاح
يوجه وجهه نحو الفلاحي
كأن أريجه بالمسك يسري
ونغمته بحيَّ على الفلاح
لأحمد موقف يبديه جد
وترويه الثقافة عن فلاح
أتتني منك يا علماً أديباً
رسائل كالمراهم للجراح

قرأت سطورها سطرًا فسطرًا
فهمته بها وهاجت بي جراحي
فلاحي الأرومة هاك مني
سلاماً مثل لألاء الصباح
إلى أن قال ساخطا وهو يتبرم من الحالة التي وصل العرب إليها:-
أرحني من حساسيات قومي
فلا رجوى لنصر أو فلاح

وللشيخ عبدالله الخليلي قصائد إخوانية بعثها لأصدقائه الخلص وتلامذته من الشعراء العمانيين كمثل الشيخ سليمان بن خلف الخروصي وأبو سرور وعلي بن منصور الشامسي وموسى بن عيسى البكري والشيخ أحمد بن عبدالله الحارثي والشيخ محمد بن عبدالله السالمي وابنه الشيخ سليمان بن محمد السالمي وغيرهم وهي قصائد عامرة بالحب وصادق الإخاء. يقول للشيخ سليمان بن خلف:-

سلام على ذاك الجناب المحبب
وأهلا وسهلاً بالنجار المطيب
فتى خلف إن أخلف النؤ سقيه
جنينا الحيا في عارض منك صيّب
سليمان سقيا للأخوة والوفا
وما فيك من خلق كريم مهذب

ويخاطب الشيخ محمد السالمي قائلاً:-

يا أخانا شيبة الحمد
من الله سلاما
وتحيات كأن قد
نفحت عنها الخزامي
تملأ الدنيا سرورا
وحبورا وابتساما
يا أخي أرضعني حبك
مذ كنت غلاما
يا أبن نور الدين إن
الدين قد أمسى فتاما
يا أخا ضبة إني
مسعر القلب دواما

ويخاطب الشيخ أحمد بن عبدالله الحارثي بقوله:-

على أحمد مني التحية ضائعاً
شذاها له في الخافقين هبوب
إليك أخي عني وعما أكنه
لمثلك لو أن الغرام لهيب

ويخاطبه في قصيدة أخرى:-

على أحمد مني السلام تحية
بروح بها روح النسيم مغردا
سلالة عبدالله مالي مطمع
سواك إذا فكري أغار وأنجدا

ويقول لأبي سرور وموسى بن عيسى:-

سلام على موسى بن عيسى إذا انجلى
بمتن المجلي من نعامة وائل
سلام عليه في المكارم والندى
وطعن الكلى في الموقف المتبادل
ومن كحميد في حديد لسانه
وعضب مضاه في دخان النوازل

ويقول في مقام آخر مخاطباً أبو سرور:-

حميد يا نجل عبدالله معذرة
من مخلص لك عاقته مساعيه
أبا سرور أتانا في صحائفه
كالمسك عتبك يزكو في غواليه

ويقول لعلي بن منصور الشامسي:-

يا نجل منصور سلاماً عاطرً
كالروض باكره السحاب الجون
يا نجل منصور تحية وامق
فيها لحبك شاهد مأمون

وللأسف لا يتسع الموقف لشواهد كانت ضرورية لتبيان تلك الروابط والأواصر.

وللشيخ عبدالله مراث حزينة لمشايخه من العلماء كمثل الشيخ خلفان بن جميل والشيخ حمد بن عبيد والشيخ سالم بن حمود والشيخ إبراهيم بن سعيد العبري وعمه العلامة الكبير الإمام محمد الخليلي وغيرهم من إخوانه ونظرائه وأصدقائه تفيض بالحزن وتقطر بالألم والشعور بالإفتقاد يقول في أستاذه عالم العربية الكبير حمدان بن خميس اليوسفي:-

حمدان حمدان أستاذي أجلك في
نفسي وترعاك من قلبي مجانيه
والله ما أنا بالناسي وهل لي أن
أنسى على النأي قلبي أو مغذيه
حمدان كنت أمير الضاد تحرزها
أنى تشاء بوحي منك توحيه
اليوسفي ومن كاليوسفي إذا
مالت إلى الزهد عين الله تؤويه

ومن رثائه في عمه الإمام الخليلي:-

قد فقدناك يا محمد حتى
ذاب من حر فقدك الصفواء
يا إمام الهدى فقدناك فقداً
عز ممن رعيت فيه البقاء
فالأراضين حرقة والتياع
والسموات دمعة وبكاء
كنت كهفا وملجأ وملاذاً
وغياثاً إن شدت اللأواء
كنت نورًا لمدلج ومنارًا
لكريم تاهت به الضراء

ويرثيه في قصيدة أخرى فيقول:-

إمام الهدى ما لي أراك مزملاً
يحثك داعي الله شوقاً إلى اللقا
كأنك والأيدي بنعشك شرع
سنا بارق في متن أطلس مودقا
رأيتك والحمى بجسمك حرها
وأنت كما قد كنت بالاً ومنطقا
كأنك لم تخلق هلوعا ولم تكن
جزوعاً ولكن كنت جلدًا موفقا

ومن رثائه في الشيخ الرقيشي:-

محمد بن سالم الحبر الرضا
امسك نصر للهدى وفتح
لإن يكن مات الرقيشي فقد
حي به صمصامة ورمح
وجامع ومجمع وموقف
يخرس فيه العلماء الفصح

ومن مرثيته في الشيخ إبراهيم العبري:-

سليل سعيد شيخنا من تركت
للشريعة يزجي ركبها وهو هائم
ومن ذا لحل المشكلات إذا
دجت حنادسها والغي للرشد كاتم

أهبت بإبراهيم تحت رجامه
وهل مستجيب في المقابر جاثم
هنيئًا لك الرضوان والقرب شيخنا
من الله فالرضوان نعم المغانم

ومن رثائه في شيخه إبن عبيد:-

حمد المرتضى سليل عبيد
منشط الفكر من عقال التواني
عاش في الناس يشحذ الناس
أفكارًا ويهدي بالعلم كل جنان
خلني أنشط البيان رثاء
إن وفى بعض حقه تبياني
فلقد راض فكرتي وهي بكر
وغذاها بطيب الألبان
إيه علامة الشريعة إسجح
عن مدين الولا عثور اللسان
رام يرثيك يوم فقدك لكن
كان أرثى لحاله في العنان
فأقلني شيخي قصوري وعجزي
عن أداء الحق الذي يغشاني

وفي الشيخ خلفان بن جميل أحد مشايخه الكبار:-

فتى جميل يا خلفان كنت لنا
طودا أشم منيفات أعاليه
كنت المنار إلى نور اليقين لنا
إلى الرشاد إلى أسمى معانيه
ولست أنسى حياتي ما أنرت به
دربي وقد أظلم الساري وحاديه

وفي شيخه العلامة سالم بن حمود:-

أقول للنبأ المفضي إلي بما
يؤدني حمله من حادث حزبا
ينعى إليّ كريم النفس ذا خلق
لا يعرف الهون لان العود أم صلبا
ينعى إلي شديد الخنزوانة لا
يروعه الأمر إن أغضى وإن غضبا
قد عاش وهو كريم النفس مشتمل
ببردة حاكها إيمانه هدبا
يا سالم ابن حمود يا ابن بُجدتها
تعلامة العصر وهبيا ومكتسبا
شيخي مربي الربيعيات من عمري
ومنشط الوعي يجتاز الفضا خببا
يا من شققت إلى العلياء دربك نحو
العلم جريا إلى أن حزته قصبا
قد كنت من أهله حلال مشكله
كشاف معضله لو أخرس الكتبا

ومراثيه كثيرة من الصعب متابعتها كلها والوقوف مع بيانها وشجنها وعاطفتها الحرى.

ومن القضايا التي أود الإشارة إليها في حديثي عن الشيخ عبدالله قضية قصيدته « الاستقاله» التي أثارت الكثير من المتابعات والحوارات والنقاش. وقصتها أننا في مجلةز «الغدير» فكرنا في إقامة أمسية شعرية للشعراء العمانيين وكانت الأمسيات الأدبية قليلة في ذلك الوقت واحتشد لهذه الأمسية جمهور عريض من محبي الأدب والثقافة غصت بهم القاعة على اتساعها وفي مقدمتهم معظم شعراء عمان في ذلك الوقت من الشباب الذي يظهر لأول مرة ومن الشيوخ والكهول وقد ضاق وقت الأمسية عن استيعابهم كلهم وكانت تلك الأمسية في منتصف سنة ١٩٨٣ وكان فاتحة الأمسية هو الشيخ عبدالله الخليلي الذي

فاجأنا بقصيدة عنوانها «الاستقالة» وفيها يعلن استقالته من الشعر وأذكر أنني كنت أدير الأمسية ومعي أحد الإخوان وبعد أن فرغ الشيخ من إلقاء قصيدته علقت فورًا أعاتبه وأعلن باسم أدباء عمان رفضنا لاستقالته تلك ومازال هذا الشريط موجود بحوزتي ولم يكن الشيخ يقصد الاستقالة في معناها الحقيقي وإنما كان يهدف للفت الأنظار إلى الرقابة التي يعاني منها الأدباء العرب والتضييق عليهم وحجر حريتهم في التعبير عما يريدون وقد تجاوب معظم الأدباء العمانيين مع تلك القصيدة وتواترت علينا في «الغدير» عشرات القصائد والمقالات تتضامن مع الشيخ وتؤيد صيحته وتناشده العدول عن استقالته والعودة للشعر الذي ما زال يحبه وقد قامت مجلة «الغدير» وقتها بجمع كل ما وردها من القصائد والمقالات وأصدرتها في ملف كبير زادت صفحاته عن المئة وكان مطلع قصيدة الاستقالة التي أحدثت ذلك الصخب والضجيج:-

مالي وللشعر يحدوني وأحدوه
غداة أوشك يسلوني وأسلوه
إلى أن قال:-
يا معشر الشعرا خلوا مطارحتي
في الشعر لو بات يغزوني وأغزوه
خلوه عني ونادوا لي سلامته
إذا استجابت وحسبي لا تنادوه
لا أكذب الله ليس الشعر يكرهني
كلا ولا كاد يقلوني وأقلوه
ولا عرفت جوادًا فيه يمقتني
بين الكرام ويجفوني وأجفوه
لكن ظروف إذا مرت على خلدي
طغت عليه فبات الصد يعلوه

ومما يدل على شدة تحرزه وتحفظه أنه وهو يقرأ القصيدة قفز عن بيتين لم يقرأهما تحاشيًا لأي سؤ فهم أو استنتاج خاطيء ولم نلاحظ ذلك ونحن نستمع إليه لأننا لم نكن قد اطلعنا على القصيدة من قبل ولكنه وهو ينزل من المنصة عائدًا إلى كرسيه مع الحضور ناولني القصيدة هامساً لي أنه قد تجاوز عن قراءة البيتين تجنباً للحرج والتفسير الخاطيء ولكني بادرته على الفور إننا في ـ الغدير ـ سننشرها كاملة ولن نقوم بحذف البيتين فابتسم قائلاً ألا ترى أنهما قد يثيران التباسًا قلت كلا فقال افعل ما تراه. والبيتان هما:-

والدهر ينظر إما مادحًا ملقا
ً أو مطربًا يتغنى بالهوى فوه
وما سوى ذين إما ذو حساسية
أو ذو جفاء جفا مغناه أهلوه

وبالغنا نحن في ـ الغدير ـ إذ لم نكتف بنشر القصيدة بكاملها وإنما ركزنا على البيتين ونشرناهما بخط كبير جدًا على شكل عنوان ولم يعلق بشيء ولا عاتبنا. وقد تضمن ذلك الملف قصائد للشيخ هلال السيابي والشاعر محمد الحارثي والقاضي أبو سرور وعلي بن شنين الكحالي والمهندس سعيد الصقلاوي وغيرهم وجاء في إحدى قصيدتي هلال السيابي والخطاب موجه إلي:-

يا أخي يا أبا فلاح سلاما
لك مني كما يفوح الخزامى
ذكرتني رسالة منك ما قد
تفعل الشهب حين تجلو الظلاما
يا أخي قد نكأت في جراحي
وغرامي وإن نسيت الغراما
قسما يا أخي وحلفة بر
لست أنسى الحقوق والإلتزاما

إلى أن قال:-

فارس الشعر هل تنام قوافيه
وقد طالما صفعن النياما
لا تصدق فللبيان اضطرام
اين منه البحر المحيط اضطراما
سوف تأتيك من رباه القوافي
مثلما شئتها دما أو مداما
فلتهيء ساح ـ الغدير ـ ليوم
يركض الشعر خيله مستهاما

ومن أبيات قصيدة هلال السيابي الثانية:-

يا بلبل الشرق من للشعر يحدوه
ومن سواك غداة الجد يرجوه
إرسل قوافيك كالبركان جامحة
امواجه فلعل المجد يتلوه
وهز بالشعر شعب العرب قاطبة
ولورماك بسهم الحقد راموه

أما علي بن شنين فبعث هو
الآخر برغم الظروف وإنها لشديدة
إرسل قريضك كالقذائف واصبا
لا تكسرن يراعة لك ثرة
يسقى بها العقل الذكي تجاربا
من لي بشعر صادق تروي به
مهج الأنام فتستحيل كتائبا
اليوم زيدي ياظروف ففي غد
سيكون وجهك بالهزيمة شاحبا

قصيدتين وفي إحدى قصيدتيه يقول:-

وقد افتتن مجموعة من شعرائنا يومئذ ببيت علي بن شنين:-

اليوم زيدي يا ظروف ففي غد
سيكون وجهك بالهزيمة شاحبا

وذلك لما رأوه فيه من قوة التحدي واستشراف المستقبل.

كما تضمن الملف مقالات لعدد من الكتاب تدور كلها حول قصيدة ـ الاستقالة ـ وبعد فترة من الوقت لعلها لا تصل إلى نصف سنة خرج الشيخ بقصيدة مطولة اسماها «جراح الليالي» اعتبرناها بمثابة رجوع عن الإستقالة. وتدفق شعره بعد ذلك في عشرات من القصائد امتلأ بها ديوانه «فارس الضاد» الذي مازال مخطوطا لم ينشر بعد. وكما مر فقد وردت كلمة «حساسية» في قصيدة ـ الإستقالة. وهذه الكلمة ليست من قاموس الشيخ عبدالله ولم تكن من الكلمات التي تجري على لسانه ولكنها تكررت بعد ذلك كثيرًا وظل يرددها حتى وفاته في شعره ونثره ومقابلاته الصحفية وقصة ظهور هذه الكلمة على لسانه أنه عندما تمت طباعة ديوانه «وحي العبقرية» فوجيء بأن كل القصائد القومية قد تم قطعها من نسخ الديوان بئالة حادة وكانت تصل إلى نحو ثلث الديوان فتألم لذلك ودخل على أحد كبار المسؤولين وقتها عاتبا يشكو له في غضب وحزن ما أصاب ديوانه فرد عليه ذلك المسؤول أن تلك القصائد تثير الحساسية فدخلت المفردة في مفرداته منذ ذلك اليوم واستمر يرددها في أجوبته لسائليه أو في قصائده التي قالها بعد ذلك وهي كثيرة متعددة ومنها قصيدة «الاستقالة» التي مر ذكرها.

مساءلات النسيان

منى المعولية

(١)

دلفت إلى الأطلال أسائل المكان عن المكان..
فما وجدت عمائم أبي وأعمامي.. ولا وجدت عصيّهم متأهبة كزينة في فرح، وعكاز في ترح، ولا مسند يهشون بها على تقلبات الأيام!
حين مضيت وأنا أسائل الزمان عن الزمان كانت هناك بقايا من صدى أصوات وصخب رددها المكان الخاوي الا من بقايا ذاكرتي..
حين ساجلت البحر أسائله عن أجساد تشربت بشرتها بملوحته، وأخرى عاشرته موقعا ولم تمخر عبابه.. بكى الموج زبدا ذابت دموعه على السيفة!
أين يا بحر تلك الأسطر من لاعبي الحواليس يملأون شغب تقاذف مزاحهم الثقيل الجميل رغم الثقل أركانك!
يممت وجهي شطر العمارة!!!
نعم هكذا كان يطيب لنا أن نسميها نحن أبناء الغوانم فيلا العم طالب بن سعيد المعولي، أب زياد، وأب العائلة الروحي.. رأيت بقايا المرمد وبقايا مرجل العيد وبقايا آثار شعث نعلنا المتراكضة بعد الفجر لتقبيل يديه وأخذ بركة العيدية والتهام قبولي العيد.. ثم الهروب إلى فرح آخر..
مضيت أحادث الطوب المتناثر عن بقايا عريش أحد كبار القرية الذي كنا نستفزه بلقبه كل ما قلنا له «حبابوه سالم أبو سبعة» فهو كما تروي لنا الجدات ولد في الشهر السابع من حمل أمه به والتصق اللقب به التصاق باقي السنين بعمره..
يخجل المكان أن يحدثني عن غياب المكان لم يجب، تجاهلني كمن لم يسمع..
مضيت أسائل الممرات الضيقة التي اتسعت واتسعت أكثر مما يجب بل اتسعت حد الفراغ!!
لم أكن أعلم أبدا أن ما كنا نسميه بين خناخيش البيوت المتقاربة سيتباعد وستكبر المسافة حتى تمتد إلى مكان آخر وحي آخر وجار آخر ووجوه لا أعرفها!
سألت الشوارع عن بيت خالي الذين كان خلف بيت أبي وتعجب الشارع من سؤالي فقد قذفتهم جغرافية الحضارة الى حيث لا أعرف!
تحولوا مع الأيام والأحلام الى منازل أخرى متقاربة موقعا، متباعدة واقعا متشابهة الحال والمبنى والهندسة.. متباينة القلب والملتقى، لا تعرف بعضها البعض إلا مرور سلام وابتسام!
أسائل المكان عن المكان في زمان لم يعد زماني فيه ينمي لهذه الزقاق..
كنت أحاول أن أستحث ذاكرتي ومخيلتي فما أوجع أن تذوب مع الذكرى تفاصيل المكان..
هنا كان بيت معلمة القرآن تسطر خيزرانها أكتفنا كلما أخفقنا في الحفظ والتسميع، أتراها تذكرنا!!
أتراها كبرت وشاخت ونست أيامها ونسيتنا، تماما كما سلبوها بيتها وسبلتها ومنصة القرآن تلاشت تحت وطأة العمرا...
هنا يا زمان قد كان مسجدنا ومحرابنا هنا تسابق أبي وإخوتي وأعمامي إليه وضوءا قبل الأذان، رأيت مأذنته الشامخة ساجدة أرضا فسبحان الله كيف تناثر وأمسى طللا بعد أن كان!!
تطول بي ذاكرتي ويطول السرد والبوح وتتوجع الأماكن من أسئلتي..
وأبقى فقط أجمع أولادي وأخبرهم عن قصة حارتنا ومرتع طفولتنا وأقول لهم كان يا مكان، كانت هناك حارة عريقة تُسمى المراغ، وخجل المكان أن يخبرني عن المكان.

(٢)

وقد أصبح للأشياء معناها
وارتدت الأشياء لأصلها
وأصبحت أراها بعين العامة لا بعين العاشق..
أعدت الأن و أنا أرى من يدك الماء عاد ماء و لم يعد كما تخيلت في زمن الحب إكسيرا ونبيذا وشراب العمر ورسمته من يديك عنوان أخر..
أعدت الأن وقد ودعت نغمات بغداد وشعر بغداد ومواويل بغداد والسمر على ألحان بغداد
أعدت الأن ولم أعد أقلب الاسطوانات بحثاً عن صبح فيروز وفرح فيروز أبحث بينها عن العصفورة البيضاء وأسألها عن شادي وألعب بالثلج كما كانت تغني وأردد للعصفورة البيضاء أنا لحبيبي وحبيبي إلي..
أعدت الأن وقد عفت السهر وأمسيت أنام باكرا وقد نسيت أن أسبق منامي بحلم يقظة وأراقصك رقصة الأمير وسندريلا وأن أتخيلك تبحث عني وأهرب ويبقى حذائي دليل وجودي وحضوري ودليل على أني ذات خيال وأمنية وصدفة مررت بها هنا.
الأن تعود وقد فقدت أم كلثوم جاذبيتها ولم تعد رفيقة الليل وما عادت أغدا ألقاك تهز وجودي وتجتاح مشاعري وما عادت أطلال إبراهيم ناجي تحدث فيني العجائب وتهيم بي كما كنت أهيم وما عدت أصدق قول الشعراء وأمنت بأن أتباعهم غاوون غاوون وأنا في مقدمتهم...
أتعود الأن ولم أعد كما كنت أقلب الارشيف أبحث بين الأوراق وأتتبع الأجندات بحثاً عن أخر ذكرى وأخر صورة وأخر لحظة وأخر كلمة حب وأهيم بها تماما كـ سعاد حسني وهي تردد أنا لسه صغيّرة.
أتيت متأخرا جدا فما عدت أقلم بتلات الورد وما عدت عند كل بتلة ألقيها أعد في داخلي أوراقها الساقطة وأسأل سؤال السذاجة .. يحبني.. لا يحبني وأعيش هيام. مراهقة تعد للعشرة وأخر رقم يسقط الحظ بين أعدادها وأخر ما تنطق يكون هو مصيرها وقرارها وفرحها..
عدت الأن وقد أعطيت للأشياء قيمتها الحقيقية وما عدت أغالي بك فيها وفيك بها
عدت أرى الخير خير وما عدت أخمن للشر نوايا وحجج وأعذار حين يصدر منك وترجيحات أخرى..
عدت متأخرا فالتلفاز أطفئه باكرا ولا أشارك البطلات شرف البطولة ولا أمنحك دور البطل فيها
عدت وقد فات الأوان فأنا أنام وأصحو وأكل وأشرب وأقرأ وأكتب كـ كائن يعيش ليعمل كل هذا الا كـ أنثى يعتريها العشق فتفعل فوق المعقول أشياء وأشياء خارقة للعادة وخارقة للوقت وخارقة للزمن ولا تتربع على أكتاف المحبات لتنادي بأن زمن العجائب باق وأن هناك من يستحق أن نكون لأجله كائنات مختلفة..
عدت وقد تركت حساب المجرات والركض خلف النجوم ولم أعد أجالس القمر ولا أحرق بشوقي الشمس ولا أتبلل بالمطر ولا ألعب بزبد البحر ولا أعنون الأحلام وأعيشها عمرا جديدا وفصل جديد وأترنم بأهازيج التسلية وأترنم بالألحان وأنثرها عطراً
عدت متأخرا وقد قوض العمر فيني وتخشبت مشاعري وتحجرت عواطفي وعدت أسمي الماء ماء وليس منك بحرا ولا حتى أراه نهراً.